

## البدرى وخطاب المحاسن دراسة في مفهوم الحديقة الإسلامية

### هالا قسقص

محاضرة في قسم العمارة الداخلية بكلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق  
halaqasqas@gmail.com

قدم للنشر في ٢٩ / ٩ / ١٤٣٤هـ؛ وقبل للنشر في ١ / ١ / ١٤٣٥هـ

ملخص البحث. ظهرت في الآونة الأخيرة العديد من الدراسات عن الحدائق الإسلامية باللغات الأجنبية، في حين ظلت الدراسات العربية في هذا المجال محدودة. وقد انتقت الدراسات الأجنبية نماذج مثالية مستقاة من سياقات مكانية وتاريخية محددة، حيث تم التركيز على التراث الأندلسي والفارسي والهندي، فشكلت هذه الثلاثية المرجع الأساسي للخيال العام لما يسمى بـ "الحديقة الإسلامية". أما المصادر العربية التاريخية المتوفرة التي تتحدث عن الحدائق الإسلامية، فقد ظلت غريبة عن سياقات البحث الجديدة. فهي لم تتحدث عن الحدائق بالأسلوب الحديث. والمصادر العربية التي تتحدث عن تصميم الحدائق نادرة جداً، كما أن الشخصيات التي تحدثت وكتبت عن الحدائق وما يسمى بـ "اللانديسكيب" كانت من خلفيات واهتمامات مختلفة. فهناك الأدباء والمؤرخين وعلماء الدين، وهذا بدوره جعل المصطلحات المستخدمة في تلك المصادر مختلفة بطبيعتها ودلالاتها عن المصطلحات الحديثة، وما زال هناك شح في المرادفات العربية القادرة على التعبير عن المجال المعنوي للمصطلحات الجديدة، كما أن هناك نقص في الأدوات الفكرية الضرورية التي تسهل فهم المصادر التاريخية العربية بقدر أقل من التحريف والتشويش. في هذه الدراسة سنحاول دراسة مفهوم "الحديقة الإسلامية" من خلال نص مشهور ومهم لأحد الأدباء الدمشقيين، أبو البقاء البدرى، هو نزهة الأنام في محاسن الشام. سنحاول من خلال هذه الدراسة تقصي الأسلوب الذي تحدث فيه عن الحدائق الشامية، وعن الفضاء الفكري والنظري الذي حام حوله النص، وعن المصطلحات التي استخدمها المؤلف للحديث عن الحدائق واللانديسكيب، وعن الخطاب الذي قدم من خلاله أفكاره وصوره وتخيالاته عن الحدائق والمتنزهات الدمشقية.

الكلمات المفتاحية: مفهوم الحدائق الإسلامية، تصميم الحدائق الإسلامية، تراث الحدائق الإسلامية، الحدائق الشامية، أفكار البدرى في الحدائق.

## ١- المقدمة

ازداد الاهتمام بموضوع الحدائق الإسلامية، وما درجت تسميته بـ "اللانديسكيب" الإسلامي (Islamic landscape)، في العقدين الأخيرين مع ظهور العديد من الدراسات في هذا المجال باللغات الأجنبية (Clark, 2004; Ramsbury, 2008; Thevanart, 2002; Conan, 2007; Hantelmann, 2001 and Dumonte, 2008) بالمقابل بقيت الدراسات العربية في هذا المجال شحيحة، وغالباً ما استندت في مواضيعها ومناهجها ومصطلحاتها على المصادر الأجنبية كمصادر أولية، أو كإطار نظري ومرجع اصطلاحي لقراءة المصادر التاريخية العربية. فقد تم إسقاط العديد من المصطلحات الخاصة بفهم وتصوير المكان، والمستقاة من المصادر الغربية على المجال الفكري العربي دون دراسات نقدية لتداعيات هذا الإسقاط. ومصطلح ( الحديقة الإسلامية ) يمثل أحد هذه الإسقاطات. وتكفي الإشارة إلى صعوبة إيجاد مرادف، واضطرارنا لاستخدام مصطلح landscape لمصطلح "لانديسكيب" بلفظه الأجنبي، وذلك لبيان مدى إشكاليات الخطاب الحديث حول هذا الموضوع. هناك إشكاليتان أساسيتان في أسلوب التعامل مع مفهوم الحديقة الإسلامية. الإشكالية الأولى هي أن الدراسات الأجنبية خلقت نماذج مثالية مستقاة من سياقات مكانية وتاريخية محددة، حيث تم التركيز على التراث الأندلسي، والتراث الصفوي الفارسي، والتراث الهندي فشكلت هذه الثلاثية

المرجع الأساسي للخيال العام لما يسمى "الحديقة الإسلامية" فمعظم الصور والتفاصيل مستقاة من النماذج الجميلة والشيقة لهذه المصادر، ومعظم الدراسات تدور في السياقات الجغرافية-الثقافية لتلك الثلاثية، ويبقى خارج هذه الثلاثية العالم العربي والتركي بأكمله تقريباً، والذي يتضمن بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية ومعظم شمال أفريقيا، باستثناء المغرب الذي كان قريباً ثقافياً وحضارياً من التراث الأندلسي. فليس لدينا دراسات عن الحدائق الإسلامية، أو اللانديسكيب الإسلامي في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية مثلاً، وهناك دراسات محدودة عن الحدائق في مصر، ولكن لا شيء يذكر عن السودان وليبيا وتونس والجزائر (Yeomans, 2006; Behrens-Abouseif, 1992 and Rabbat, 1995).

الإشكالية الثانية هي أن المصادر العربية التاريخية المتوفرة التي تتحدث عن الحدائق واللانديسكيب، لا تتحدث عنها بالأسلوب الحديث فالصادر التي تتحدث عن تصميم الحدائق نادرة جداً، كما أن الشخصيات التي تحدثت وكتبت عن الحدائق واللانديسكيب، كانت من خلفيات واهتمامات مختلفة. فهناك الأدباء والمؤرخين وعلماء الدين، كونهم يمثلون الطبقة المتعلمة والنخبة المخولة بالكتابة وهذا بدوره جعل المصطلحات المستخدمة في تلك المصادر مختلفة بطبيعتها ودلالاتها عن المصطلحات الحديثة. ونحن ليس لدينا إلى اليوم

## ٢- مفهوم الحديقة الإسلامية

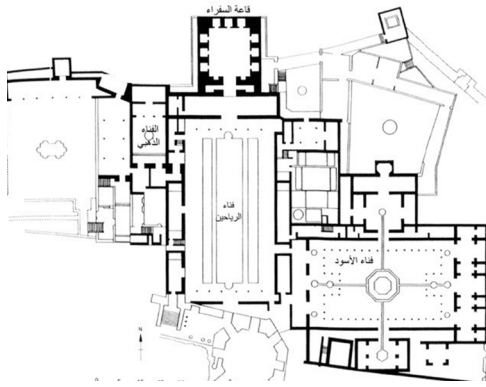
استند مفهوم (الحديقة الإسلامية) في الدراسات الحديثة على ثلاثة ركائز أساسية: الشكل والهوية والتاريخ، وهذه الركائز لم تذكرها النصوص التاريخية، كنص البدري الذي اعتمد على الوصف الحسي للمكان من خلال ذكر ما قاله الشعراء في وصفهم للحديقة.

فمن ناحية الشكل والتصميم اعتبرت الدراسات أن هناك تصاميم حدائقية وتنظيمات فراغية خاصة تميز الحدائق الإسلامية عن غيرها، كما في النماذج المستقاة من الأندلس وإيران وشبه القارة الهندية. وفي هذا يحاول الباحث (Jim Wescoat) التمييز بين الحديقة الإسلامية وغيرها من الحدائق التاريخية فيقول: (تمتلك المناظر والإطلالات المفتوحة مكانة جوهرية وأساسية بالنسبة للحدائق والأراضي الإنكليزية، وكذلك بالنسبة للحدائق الرسمية الفرنسية مثل فرساي، التي تقارن بالحدائق الإسلامية أحياناً، إلا أن التجربة البصرية في الحدائق الإسلامية محصورة بالجدران المغلقة والمباني. فالحديقة لا تعترف بأية إطلالات خارج حدود جدرانها، ربما باستثناء الإطلالات التي تقدمها السماء. إن إطار الإطلالات في الحدائق الإسلامية يتصف بالتوسع والامتداد بشكل رمزي، ومع هذا فهو محتوى مساحياً. فهو عبارة عن أراضي مثالية وكاملة تحتوي على النوافير، والطرق المحورية، والظلال، والأشجار المثمرة الغربية، والأبنية السكنية، عوضاً عما نجده في

مرادفات دقيقة لبعض المصطلحات الحديثة مثل مصطلح "لاندسكيپ" كما ذكرنا، مرادفات قادرة على التعبير عن المجال المعنوي للمصطلح، وعلى توفير الأدوات الضرورية لفهم المصادر التاريخية العربية بقدر أقل من التحريف والتشويش تجعل هاتان الإشكاليتان من "الحديقة الإسلامية" مفهوماً إشكالياً، لا مرجعية نظرية، وتصميمية، ونصية، واصطلاحية، وجغرافية ثابتة له ضمن السياقات والمصادر العربية. وهو مفهوم انتقائي ظهر في الدراسات الأجنبية الحديثة، وتطور تبعاً لمفهوم "العمارة الإسلامية" و"المدينة الإسلامية" اللذان مازالا موضوع دراسة ونقاش من الباحثين والمختصين (Mitchell, 1978; Spahic, 2009; Hillenbrand, 1999 and Petruccioli, 2002). وفي هذه الدراسة سنحاول دراسة مفهوم "الحديقة الإسلامية" من خلال نص مشهور ومهم لأحد الأدباء الدمشقيين، أبو البقاء البدري، هو: "نزهة الأنام في محاسن الشام" (البدري، ١٩٨٠). سنحاول من خلال هذه الدراسة تقصي الأسلوب الذي تحدث فيه عن الحدائق الشامية، عن الفضاء الفكري والنظري الذي حام حوله النص، عن المصطلحات التي استخدمها المؤلف للحديث عن الحدائق واللاندسكيپ، وعن الخطاب الذي قدم من خلاله أفكاره وصوره وتخيلاته عن الحدائق والمنتزهات الدمشقية.

البركة في مركزها، وبالتالي خلق فراغ داخلي يمثل الفصل بين الفراغ العام والخاص، هذا الفصل يشكل جزءاً من الحياة الاجتماعية عند المسلمين، حيث تفتح المنازل نحو الداخل (القلب) بدلاً من الخارج (العالم)، فمثلت الحدائق الداخلية بالقلب أي (الباطن) والتي تعكس الجانب التأملي الروحي للطبيعة البشرية، على عكس المنازل الحديثة التي تحوي حدائق خارجية "الظاهر" والتي تمثل الموقف (الديني) (Clarck, 2004).

وتضيف (EmmaClarck): (فالحدائق الإسلامية ماهي إلا تناغم ما بين النباتات والأشجار المرتبة بطريقة هندسية لتظهر دور الإنسان الذي خلقه الله لأجله. وهذا ما يسمى بـ "الهندسة الحقيقية". وهذا ما يظهر في الفناءات الداخلية لقصر الحمراء، كما في الشكل (1).



الشكل (1): مخطط لفناء الرياحين وفناء الأسود في قصر الحمراء، غرناطة

(Ruggles, Fairchild, (2008) "Islamic garden and Landscapes".

University of Pennsylvania, Philadelphia, page154)

الأراضي المفتوحة من جبال وسهول وأحراج شوكية وحقول).

وقد ركز الباحثون في مجال الحديقة الإسلامية على دراسة الشكل التصميمي للحديقة، من خلال مقارنة تصاميم الحديقة الإسلامية في أقاليم متعددة، واستطاعوا أن يحددوا مبادئ عامة مشتركة لتصميم الحديقة الإسلامية تشترك فيها جميع هذه الأقاليم، سواء كانت هذه الحدائق مفتوحة أم مغلقة، ومن أهم ما يميز هذه الحدائق، أنها كانت تشكل مع القصر أو البناء التابعة له، وحدة أساسية لا تتجزأ، فكان الهدف الرئيسي لإنشاء تلك الحديقة هو إظهار عظمة هذا المبنى، ومن أهم مقوماتها الممرات التي تعد الشرايين الرئيسية التي تربط أجزاء الحديقة بعضها ببعض، وقد تميزت هذه الممرات بخطوطها الهندسية المتناظرة والتي غالباً ما ارتبطت ببعضها بزوايا قائمة، مكونة بذلك الأساس للنظام الرباعي الذي شكّل منه جميع الحدائق الإسلامية. هذا بالإضافة إلى عناصر أخرى تميزت بها الحدائق الإسلامية، كالنقوش والزخارف والعرايش والأسوار.

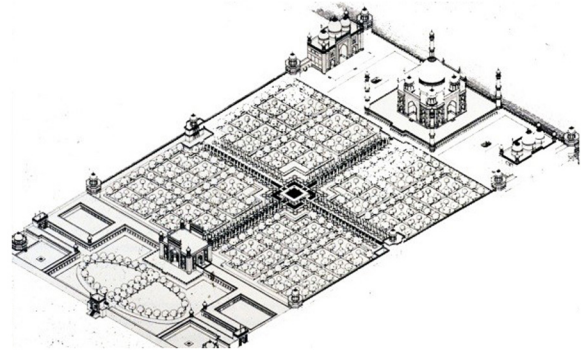
واستناداً إلى (Emma Clarck) في كتابها The Art of the Islamic Garden: (إن تصميم المنزل الإسلامي كان معتمداً على فكرة الحدائق الرباعية المأخوذة من نموذج بدائي وُجد في بلاد ما بين النهرين، بالاستفادة القصوى من كمية قليلة من الماء، ومن ثم البناء حول فناءات مغلقة، تتوضع

ذاتها وأنها ذات توجه داخلي، وأول ما ينعكس ذلك فعلى جدرانها الخالية من أية معالم بالنسبة للعالم الخارجي، وفي الوقت ذاته هي الملجأ الآمن والشمين بالنسبة لمن يقطن في داخلها. ويقول الباحث (Jim Wescoat): (إن ما يثبت الوحدة التي يحمل طابعها كل عمل فني بين مناطق الفن الإسلامي، أكثر من أي شيء آخر هو الإسلام نفسه، إذ يبقى العامل الديني أكثر فعالية وبقاء) (مارسيه، ١٩٦٨). وبإمكاننا القول بأن صور الفردوس التي وردت في القرآن هي عبارة عن صلة الوصل بين الحدائق الإسلامية، وأن شكل الفردوس له مواصفات أساسية هي التناسق والتوازن، المخطط المحوري، والمياه الجارية هي بعض تلك المواصفات.

وتؤكد الباحثة Emma Clarck في كتابها The Art of the Islamic Garden على وجود الحديقة الإسلامية كشيء رمزي فتقول: (يمكن أن ينظر إلى الحديقة الإسلامية كنوع من الفن المقدس في الهواء الطلق، له محتوى وشكل ولغة ورمزية، وكل ذلك فقط لتذكير الزائرين لهذه الحديقة بالخلود والأبدية، وهذه هي الحقائق المخفية التي تختبأ وراء المظاهر الخارجية). (Clarck, 2004).

فيما يقول الباحث Jim Wescoat: (بإمكاننا القول بأن صور الفردوس التي وردت في القرآن هي عبارة عن صلة الوصل بين الحدائق الإسلامية وأن شكل الفردوس له مواصفات

ومن الأمثلة الأخرى التي تظهر لنا الحديقة الإسلامية كحديقة مفتوحة على الخارج، ولكن ضمن ذات الإطار التصميمي الذي يعتمد على فكرة الحديقة الرباعية، حديقة تاج محل، الشكل (٢).



الشكل (٢): مخطط لحديقة تاج محل تظهر فيها التقسيمات الرباعية التي تقسم الحديقة إلى أربعة أجزاء متناظرة.

(en.wikiarquitectura.com)

أما من ناحية الهوية، فقد اعتبرت الصفة الإسلامية بشكل عام على أنها نابعة من المعاني الدينية، وبينت علاقة الحديقة بالوصف القرآني للحدائق. وتقوم صور الفردوس المختلفة والموجودة في القرآن الكريم بتوفير قاعدة أساسية في فهم الحدائق الإسلامية. فإن كلاً من حدائق بلاد الفرس، والهند المغولية، وكذلك الحدائق الأندلسية كانت تتمتع، وبشكل واضح، بقاعدة مشتركة بما يتعلق بالتصميم الرمزي والبهجة الحسية أو المادية. وتنفصل "حدائق الفردوس" تماماً وبشكل جذري عما يحيط بها من أراض، غالباً ما توصف الأبنية والحدائق الإسلامية بأنها متكتمة ومنغلقة على

و متنوعاً فهناك طرائق متعددة للزراعة والري وحتى تنظيم المجتمع البشري فكل هذه العوامل تتحكم في تكوين الحديقة.

إن قلة المقارنات الواسعة بين حدائق الأقاليم المختلفة ليس بالأمر المفاجئ كلياً. فبعض المجتمعات الإسلامية كانت تهتم بالحدائق اهتماماً ضئيلاً جداً، والبعض الآخر لم يتبقى منها إلا دلائل قليلة لا تكفي للحديث عن طراز الحديقة الإسلامية. باستثناء إسبانيا التي يعود تاريخ حدائقها إلى ما بعد القرن الخامس عشر، الوقت الذي كان قد وجد فيه سجل كبير عن التوسع الإسلامي والتطور المعماري، ويقول الباحث (Jim Wescoat) : (إن الوحدة الموجودة بين حدائق الإمبراطورية الواحدة أخذت بالتضاؤل بسبب التغيرات التاريخية التي طرأت على الذوق والمعتقدات الدينية، وبسبب التنوع الجغرافي بالبيئات الطبيعية وأشكال الأرض التي تغيرت بشكل متلاحق؛ وكذلك بسبب التبادل الحضاري والثقافي بين الإمبراطوريات).

وتقول الباحثة Emma Clarck: (في جميع أنحاء العالم الإسلامي هناك حدائق متنوعة تنوعاً كبيراً من حيث الأسلوب، تعكس بذلك العوامل العلمية والبيئية، وفضلاً عن التنوع الثقافي للشعوب، فهناك عوامل أخرى كالتضاريس والمياه والهدف من إنشاء الحديقة. فهناك حدائق مفتوحة شاسعة كحديقة شاليهار، إلى حدائق أخرى عبارة عن فناءات موجهة للداخل كتلك الموجودة في دمشق

أساسية - التناسق والتوازن، المخطط المحوري، والمياه الجارية هي بعض تلك المواصفات. وعلى افتراض أن قوة واتحاد رمزية الفردوس تقوم بتبرير مصطلح الحديقة الإسلامية). أما بعض الباحثين فقد اعترضوا على فكرة الدين الإسلامي كثقافة متماسكة وحدت بين جميع الفنون الإسلامية بما فيها الحدائق، وتقول الباحثة Fairchild Ruggles في كتابها Islamic Garden and Landscape: (في ضوء هذا التنوع في المجتمعات المسلمة، يمكن للمرء التشكيك في صحة (الإسلامية) كتسمية ثقافة متماسكة. ومع ذلك فإن المسلمين في كل من غرناطة في القرن الرابع عشر والقاهرة في القرن الرابع عشر نظروا إلى ما اعتبروه أصول مشتركة مع الأراضي المقدسة في شبه الجزيرة العربية حتى المسيحيين واليهود والهندوس الذين كانوا يعيشون في الممالك الإسلامية غالباً استوعبوا الثقافة الإسلامية إلى درجة أنهم اعتمدوا اللباس والطعام والموسيقى والعمارة الإسلامية من دون أن يعتنقوا الإسلام أصلاً) (Ruggles , 2008).

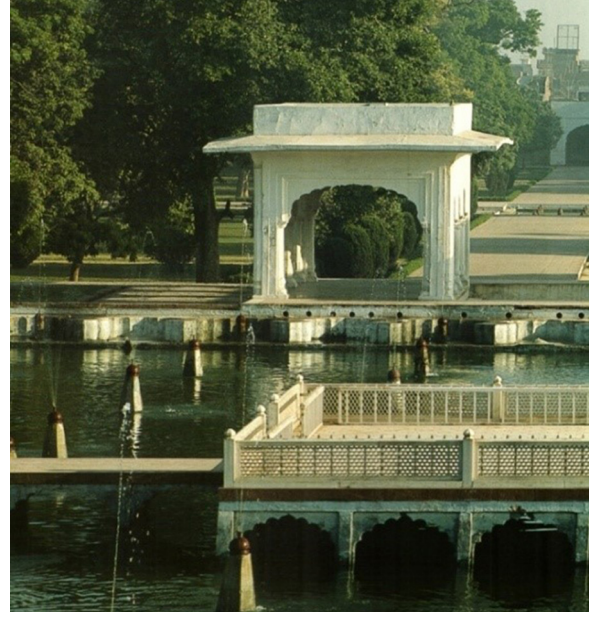
ومن ناحية التاريخ، اعتبرت الحدائق الإسلامية أنها تعبر عن تاريخ و ثقافة الشعوب الإسلامية، تلك الثقافة التي اختزلت الكثير من أنماط حياتية متغيرة. فانتشرت الحدائق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وتميزت كل منطقة بنمط معين، وربما يعود هذا التميز لعدة عوامل أهمها المناخ، فمن المؤكد بأن حديقة ما في غرناطة مثلاً تختلف عنها في بلاد الشام، فالعالم الإسلامي واسع

يرى أن بعض أشكال العمارة الإسلامية ظلت متأثرة في الثقافات التي استمدت الثقافة الإسلامية منها وأن هناك استخدام واعى لعناصر معمارية غير إسلامية في العمارة الإسلامية وهذا الدمج ناتج عن الاتجاهات الثقافية السائدة التي أبقت روابط دون انقطاع مع الحضارات التي سبقت الإسلام. (Bloom, 2002).

فالبدرى بالمقابل لم يركز على الشكل نهائياً ولا على البعد التصميمي والهوية الإسلامية، ولا على التاريخ والثقافة الإسلامية. فهو لم يتحدث أصلاً على الحدائق بأنها إسلامية أو غير إسلامية، وإنما ركز على البعد التجريبي الشعاري بالدرجة الأولى. وخطاب المحاسن يعنى بصفات المكان وارتباط الأفراد فيها، كما يعنى بفوائد المزروعات وعلم الزراعة المستقى من مصادر يونانية.

تناول البدرى في كتابه موضوع المحاسن في مدينة دمشق، فاعتبر كل أراضي المنتزهات من المحاسن، بما تحويها من دور وقصور وأبنية وأشجار وثمار وأزهار، وإن التصوير الفني من خلال الأبيات الشعرية-الذي يستقى من اللغة الحقيقية والمجازية- أدوات له في رسم لوحات جميلة مستمدة من الطبيعة بأشجارها وأزهارها، وقد ركز البدرى ضمن خطاب المحاسن على الصور الشعرية والتجربة الإنسانية للمكان، أكثر من المعالم التصميمية للحدائق والمنتزهات. فشكل الحدائق وتوزيعها لا يبدو أنها مهمة بدرجة تلك الجوانب

وفاس. فالحدائق الإسلامية تشبه تماماً الفن والعمارة الإسلامية، قد تختلف بالغنى والتنوع، إلا أنها تحتفظ بنفس المبادئ التي تعبر عن الروح الإسلامية (Clarck, 2004)، الشكل (٣).



الشكل (٣) : حديقة شاليمار في لاهور

(Hantelmann, Christa, (2001) "Gardens of Delight: The great Islamic - Garden". UK, Page 142).

بينما يرى الباحثان (Jonathan Bloom and Sheila Blair) في كتابهما (Islamic Arts) بأن الفن الإسلامي يمثل جميع ثقافات المجتمعات التي عاشت في ظل الدولة الإسلامية، وليس فقط الفنون المتعلقة بالدين الإسلامي، فالفن الديني على وجه التحديد يلعب دوراً صغيراً نسبياً في مجموعة كبيرة ومتنوعة من الفن الإسلامي. (البدرى، ١٩٨٠) أما الباحث (George Mitchell) في كتابه (Architecture of the Islamic world)

الدين محمد ابن نباتة في وصف متنزه الخللخال حيث يشبه نزته في دمشق بجانب محبوبه الذي قبل جبهته نسبة لمتنزه الجبهة وصولاً به إلى خلخاله نسبة إلى محلة الخللخال فيحسن في ذلك :

يا حبذا يومي بوادي جلق  
ونزتهي مع الغزال الحلي  
من أول الجبهة قبلته  
مرتشفاً لآخر الخللخال  
(البدرى، ١٩٨٠).

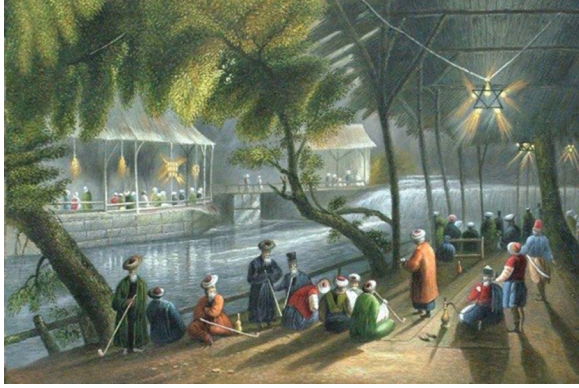
وقد ذكر البدرى بأن محاسن دمشق كثيرة بشكل عام وهي لا تعد ولا تحصى، وعندما تحدث عن المتنزهات حدد بعض صفاتها والتي اعتبرها من المحاسن، كوجود المناظر وما تحوي من أشجار ورياحين أزهار وأنهار ونواعير وقصور... واعتبر أن بعض المتنزهات لا تقصد فقط من أجل التنزه وإنما من أجل العبادة أيضاً، وهذا ما زاد في محاسن المتنزهات برأيه أنها كانت ذات مقصد آخر غير التنزه، مما أعطاها الطابع الإسلامي. فمن الملاحظ في وصف ابن البدرى للمتنزهات أن جميعها كانت تحوي على دور العلم سواء كانت من المساجد أو المدارس، حتى المساجد كان الفناء الداخلي (الصحن) من أهم مكوناتها فكان الناس يجتمعون في هذا الصحن ليقضوا به أوقاتاً ممتعة وفي ذلك يقول ابن البدرى في وصف صحن مسجد دمشق :

الحسية والمعنوية التي تحفز الأفراد على خلق صور شعرية جميلة يتذوقون المكان من خلالها. فوجود الناعورة مثلاً كعنصر حدائقي فهو مهم له كوظيفة شعرية أكثر من الوظيفة التصميمية، بمعنى أن استذواق المكان لا يقوم على الترتيب الفراغي للحديقة بقدر ما يقوم على ما تحفز الناعورة في نفس الرائي المتنزه من صور شعرية مرتبطة بشكلها وصورتها ووظيفتها. وفي ذلك يقول البدرى على لسان ابن نباتة :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها  
وأضلعها كادت تعد من السقم  
أدور على قلبي لأني فقدته  
وأما دموعي فتجري على جسمي  
(البدرى، ١٩٨٠).

ومن خلال تحليل الأشعار الواردة في النص، نلاحظ أن المصطلحات التي استخدمها البدرى جميعها تدل على أماكن للتنزه وقضاء أوقات الراحة والمتعة لما تحويه من عناصر حدائقية كالأنهار والجداول والبرك والأشجار والأزهار وغيرها، ولكن من الصعب تمييز خصائص هذه المتنزهات وأشكالها، لأن الشعراء اعتمدوا في وصفها على الخيال والمشاعر العاطفية وربط مكوناتها بأحاسيس مختلفة كجمال المرأة، وتجاهلوا تماماً الوصف الحسي للمكان، وفي هذا يقول ابن البدرى على لسان جمال

بزراعة الورود والاعتناء بمظهرها ورائحتها العطرة ، ليتمتعوا بها أثناء تجمعاتهم في هذه الحدائق ( Ruggles , 2008 ).



الشكل (٥) : متنزه في مدينة دمشق على ضفة نهر بردى،

بارتليت ١٨٣٧ . (www.antiqprints.com)

وقد أجاد البدرى الوصف الظاهري للأزهار وهي من النباتات التزيينية ، وامتزج شعورياً بها وخلع عليها مشاعره، وقد ورد في كتابه أبيات شعرية في وصف الورد والرجس والبنفسج والمنثور والسوسن والزنبق والأقحوان وغيرها من الأزهار التي كانت شائعة في ذلك الزمان. ومن الملفت للنظر أن البدرى ابتداءً الحديث عن الزهريات قبل الثمريات، وهذا يؤكد أنه اهتم بموضوع النباتات التزيينية التي تمثل الوجدان، وتؤثر في خيال الشاعر الزائر للحديقة بعد أن أضفى عليها من لمساته ولفقاته، وأفاض عليها من أضوائه واقتباساته. من خلال قراءة الأبيات الشعرية الواردة عن محاسن الأزهار نلاحظ المزج بين وصف الأزهار وحديث الغزل والحنين إلى المرأة. فمثلاً يصف ابن البدرى

وفي صحنه من عجائب الأبنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرة ما يحير العقول وتكل عنده الأفهام، وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها وفيه يجتمع أهل البلد وهو متفرجهم كل عشية تراهم فيه ذاهبين راجعين من باب البريد إلى باب جيرون لا يزالون على هذه الحال إلى انقضاء العشاء الاخيرة (البدرى، ١٩٨٠).



الشكل (٤) : صورة لمنطقة الربوة في مدينة دمشق ، يظهر فيها متنزه يقصده الناس للرحلات ١٩٥١ .

( www.mideastimage.com)

واستناداً إلى Fairchild Ruggles: (تعدى كون الحديقة أو البستان مكاناً لإنتاج المواد الغذائية والمحاصيل، لتساهم بالمشاركة في الحياة الدنيوية، وهذا يعني أن مساهمة أصحاب الحدائق الخاصة والمسؤولين عن الحدائق العامة، بتنظيمها وتميئتها ليس فقط من أجل النتاج المادي والرخاء الاقتصادي، بل من أجل المتعة والترفيه بعد عناء الدمشقيين من العمل، فبالإضافة إلى الري والتسميد والتقليم وزراعة المحصولات ، قاموا

شجاع شيرويه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ان الله عز وجل خلق الورد من بهائه، وجعل له ريح أنبيائه فمن أراد أن ينظر إلى بهاء الله، ويشم رائحة أنبيائه فلينظر إلى الورد الأحمر ويشمه)) (البدرى، ١٩٨٠). وفي وصف محاسن الورد يقول على لسان بديع ابن المعتز في تشبيه الورد بوجنة الحبيب:

ووردة في بنان مـ عطار

حتى بها في خفي أسرار  
كأنها وجنة الحبيب وقد  
نقطها عـاشق بدينار  
(البدرى، ١٩٨٠).

٣- أبو البقاء البدرى (٨٤٧-٨٩٤ هـ / ١٤٤٣ -

١٤٨٩ م)

لا نعرف سوى القليل عن كاتب نزهة الأنام، الذي عاش في نهايات العصر المملوكي، وكان يعمل في القاهرة عندما كتب الكتاب كما أشار في مقدمته. وقد ترجمه عبد الرحمن السخاوي في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ويبدو انه كان على معرفة شخصية به. يبدو أن ابن البدرى، كما ورد ٣ في ترجمة السخاوي، عاش متنقلاً بين الشام ومصر ومكة والمدينة، وانتهى به المطاف إلى غزة، حيث توفي هناك

على لسان معين الدين عسرون الزنبق الذي شبهه بامرأة ممشوقة القوام ورشيقة، فتحت لها الصدور من جمالها الساحر فأحسن الوصف حين قال:

وزهراء هيفاء القوام رشيقة

منعمة شـمقت عليها الغلائل

كأن أعاليها قناديل فضة

وقد أوقدت منهن تلك الفتائل

(البدرى، ١٩٨٠).

ولم يشبه ابن البدرى الأزهار بالمحبوب، وإنما كانت بحد ذاتها كائن يذكره به وفي ذلك يقول على لسان ابن تميم الذي يتذكر لقاءه مع المحبوب في حديقة تحوي نرجساً يسترق النظر إليها فيحسن الوصف والتشبيه:

ولم أنس اذ زار الحبيب بروضة

وقد غفلت عنا وشاة ولوام

أقول وطرف النرجس الغض شاخص

الينا و للنام حـولي إمام

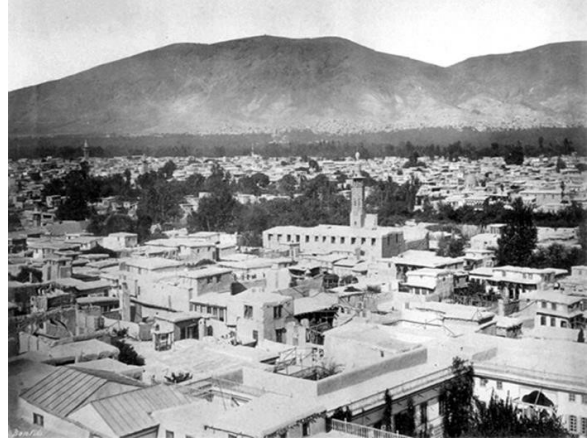
(البدرى، ١٩٨٠).

وللورد مكانة خاصة في نفوس الشعراء عامة وابن البدرى خاصة، فقد أولاه اهتماماً خاصاً في كتابه لما فيه من فضائل ومحاسن ومنافع، فمن ذكر فضائله ما قاله البدرى نقلاً عن الإمام الحافظ أبي

والحديث عنها هو من خلال الخيال الأدبي والعلمي وليس من خلال الخبرة المهنية. ولكن مع ذلك فقد أعطانا ابن البدري تفاصيل مهنية كثيرة، وطيف من المصطلحات التقنية المهمة.

ويبدو تعلق ابن البدري الشديد بمدينة دمشق ومنتزهاتها واضحاً من مقدمته، حيث يشير إلى الشوق الكبير -الذي أثاره طلب الصديق المصري على الأغلب- بوصف دمشق. ونستطيع أن نكتشف من خلال قراءة الكتاب شوق البدري وحينه الدائم لهذه المنتزهات والحدائق، التي تحدث عنها ووصفها وصفاً دقيقاً من الناحية الحسية وليس الشكلية، فكان ارتباطه الجسدي بالمكان أقوى من باقي الارتباطات.

ويأتي تأكيد ابن البدري أن الوصف الأدبي والكلام المزوق، مهما كان معبراً وبلغاً، لن يغني عن التجربة الحسية للمكان، ولن يفني بالتذوق الجسدي الجمالي المباشر، "ماخالط اللحم والدماء"، ليدل على أن ابن البدري قد عاين تلك الأماكن التي وصفها في كتابه، وأن الحدائق والبساتين والرياض والمنتزهات التي ورد ذكرها يمكن اعتبارها أماكن عامة للجماهير. ويشير كتاب ابن البدري، إلى الدور المعنوي التي كانت تلعبه الحدائق والبساتين والمنتزهات في حياة الأفراد، وذلك في تنمية حس الانتماء إلى مدينتهم، وحبهم لمحاسنها، وتوقهم الدائم لتذوق جمالها. ويقول ابن البدري معبراً عن عمق انتمائه لمدينة دمشق، كما لو أنها محبوبته وقد



الشكل (٦) : صورة تظهر فيها مدينة دمشق من الجامع المعلق والبساتين المحيطة بما انتهى بجبل قاسيون ، بعدسة تانسريد توماس ١٨٧٠ . (org.wikimedia.commons)

تشير المصادر أن لابن البدري عدة كتب، منها "راحة الأرواح في الحشيش والراح"، و"غرر الصباح في وصف الوجوه الصباح"، و"المطالع البدرية في المنازل القمرية"، و"سحر العيون" و"الصنائع البدرية فيمن تزهده وتاب من البرية" (الزركلي، ٢٠٠٢). فهو أديب وشاعر بالقريحة والتعلم، وناسخ بالمهنة الأصلية. ولاندرى مهنة والده عندما تنقل معه بين دمشق والقاهرة، وربما التجارة، لأنه عاد وتكسب بالتجارة لاحقاً كما يشير السخاوي. والمهم هنا أنه لا علاقة لابن البدري بالحدائق والزراعة والنباتات إلا من خلال كونها موضوعات للكتابة الأدبية. فلم يمتحن الزراعة ولا عمل بالحدائق قط كما يبدو، ولكنه لا بد وأن ارتادها باستمرار على حسب عادات الدمشقيين. ف"الحدائق" و"البساتين" هنا مواضيع أدبية،

هجرته تأديباً له بسبب ذنب ارتكبه:

#### ٤- كتاب نزهة الأنام

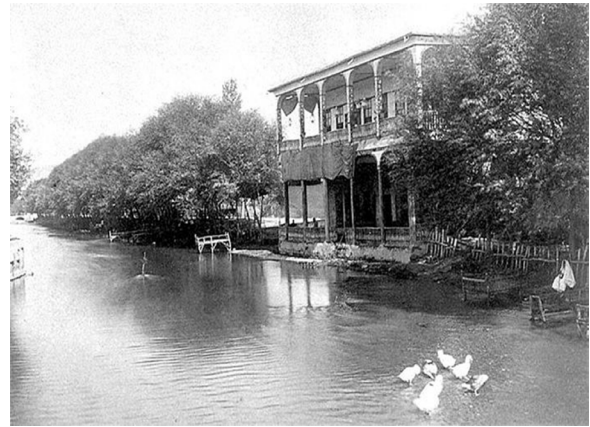
نزهة الأنام في محاسن الشام هو كتاب تاريخي أدبي علمي، يستقي مادته من عدة مصادر دينية وتاريخية وعلمية متداولة في الحقبة التي عاش فيها. يمكننا بشكل عام تمييز مواد الكتاب إلى ثلاثة أنواع: مادة تاريخية، ومادة أدبية، ومادة علمية. وقد بدأ البدري كتابه بالمادة التاريخية، حيث تحدث من خلال ماسماه "المحاسن" عن تاريخ دمشق، ثم طغت المادة الأدبية والشعر على النص عندما بدأ بوصف المتزهات وعناصرها الجمالية من الورد والنواعير، ثم انتقل إلى المادة العلمية في الحديث عن منافع النباتات التي تختص فيها مدينة دمشق.

ابتدأ البدري الكتاب بمقدمة تصف دور الخالق الذي جعل من دمشق مدينة عامرة بالأشجار والأنهار وغيرها من المحاسن الكثيرة التي لا تحصى، فجاء كتابه كمختصر عن حديقة يسعد بها خاطر ويترنم فيها الناظر، ولهذا سمي كتابه بنزهة الأنام في محاسن الشام. تناول ابن البدري الجانب التاريخي في بداية كتابه فتحدث بعد المقدمة عن سبب تسمية الشام. وأوضح بأن هناك عدة مصادر لهذا الاسم، ثم تحدث عن باني دمشق، وذكر تاريخ مسجدها وبنائها وقلعتها وأبوابها السبعة وسبب تسميتها، وفتحها على يد الصحابة، معتبراً كل هذه الأمور من المحاسن التاريخية لهذه المدينة.

وصف ابن البدري مدينته دمشق بأحسن الوصف وكأنه بتوسعه في وصفها، بالإضافة إلى

غير أني رميت منها بعد الوصل بقطيعة صدّها،  
كأنّي أذنبت في حالة القرب فأدبتني بهجرها وبعدها:  
عشنا زماناً وليس الوصل يقنننا  
واليوم أدنى خيال منك يرضينا  
(البدري، ١٩٨٠).

بالطبع يمكن أن يكون ابن البدري ذو حساسية عالية للمكان، وأن حياة الترحال التي عاشها ربما ضخمت هذه الحساسية عنده وجعلته يتغنى بشوق أكبر بمدينته الأم دمشق، ولكن تواتر نمط الكتابة هذا يدل على انتشار هذه الحساسية ضمن شريحة واسعة من المجتمع. ومما لاشك فيه أن ارتباط ابن البدري بدمشق عميق، وقد عبر عن ذلك من خلال رسمه الشعري والأدبي لمحاسن الشام، التي لم يراها في مكان آخر تواجد فيه.



الشكل (٧) : صورة لمنزل دمشقي مطل على ضفة نهر بردى، بعدسة

تناول ابن البدرى الجانب الأدبي في وصف مدينة دمشق، فتحدث عن نهر بردى وفروعه وجداوله والنواعير المنتصبة عليه. ثم تحدث عن الأشجار والأزهار والأثمار التي كانت مزروعة في المتنزهات، كالشرفان، والمرجة، وحي المنيع، ومتنزه الجبهة، ومتنزه النيربين، وربوة دمشق، وست الشام، وأراضي سطرًا ومقرى، ومتنزه الليلك، ومتنزه السهم، والصالحية، وجبل قاسيون، والتي رصعها بأقوال الشعراء الذين وصفوها بأدق وأجمل الوصف. ومن الملاحظ ربط الوصف الأدبي للنباتات والمتنزهات بالمرأة التي من الواضح أنه كان لها الأثر الكبير في حياتهم، وفي ذلك يقول ابن رشيق القيرواني في تشبيهه التفاح للمحبوب :

تفاحة من كف ظبي أخذتها  
جناها من الغصن الذي شبه قده  
لها لمس رديه وطيب نسيمه  
وطعم لما فيه وحمرة خده  
(البدرى، ١٩٨٠).

ثم وصف في كتابه الغوطة التي اعتبرها من محاسن الشام الجامعة للمحاسن، وما لها من فضل لما ورد عنها وعن فضلها في الأحاديث النبوية. وانتقل بعدها للحديث عن محاسن فصولها وبركاتنا وجباناتها والعظماء المدفونون فيها، كجبانة باب الصغير، وفيها بلال الحبشي، والسيدة سكيئة بنت

إرضاء لحنينه لها كونه عاش في مصر في فترة تأليفه لهذا الكتاب، أراد أن يصف فضائل ومحاسن هذه المدينة لبيان فضلها عن المدن الأخرى، فقد قال عنها على لسان الشيخ بدر الدين محمد الدمياني الاسكندري المالكي الذي فضلها على مصر: فتأملها الملوك فإذا هي جنة ذات ربوة قرار ومعين، وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين. وحسبها بالجامع الفارق بينها وبين سواها، والأثمار التي إذا قبل المحل فما أجراها، وإذا سمع حديث الخصب فما أروها. وما أقول ومتنزهات مصر عارية عن المحاسن، وهذه ذات الكسوة، وأن النيل ما احترق إلا من الأسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود إلى تلك الربوة، ما أظنه أحمر إلا خجلاً من صفاء أنهارها، ولا ناله الكسر إلا لتألمه بالانقطاع عن الوصول إلى سقي أزهارها (البدرى، ١٩٨٠).



الشكل (٨) : لوحة لمدينة دمشق يظهر فيها نهر بردى، ورنر ١٨٧٥.

وبحسب وصف السخاوي عاش فقيراً حتى وفاة زوجته. وفي ذلك يقول في وصف متنزه الشرفان: ومن محاسن الشام شرفاها وما حويا من المناظر والقصور، وما فيها من الولدان والهور، وتقرب إلى الله تعالى أهلها ببناء المدارس، رغبة في جوار المجرد الفقير البائس. ورتبوا له من الخبز واللحم والطعام، والزيت والحلو والصابون والمصروف في كل شهر على الدوام. فيجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن، فيكف لا ينبعث إلى طلب العلم ويتحرك من فهمه ما سكن (البدرى، ١٩٨٠).

ولم يكتفي بوصف الأزهار والزروع فقط وإنما دخل في تفصيلات عن طرق زراعتها وفوائدها الطبية، وبذلك أضاف أهمية أخرى لكتابه ألا وهي إظهار أهمية الجانب الزراعي والطبي في حياة الدمشقيين، وفي ذلك يعدد منافع الرمان على لسان ابن الجوزي فيقول:

وقال ابن الجوزي الحلو حار رطب وقيل بارد معتدل جيده الكبار منفعته يلي الصدر والحلق ويصلح للسعال والباه ويوافق للمعدة ويحدث نفخاً. دفع مضرته بالرمان الحامض يتولد منه غذاء صالح للامزاج المعتدلة وللكهول في الخريف. والرمان الحامض بارد يابس لطيف قابض جيده الكثير الماء ينفع للكبد ويقمع الصفراء ويمتدح سيلان الفضول إلى الحشا، خصوصاً شرابه، ويدر البول أكثر من الحلو ولكنه يضر الصدر والصوت والمعدة ودفع

أبي بكر الصديق، والسيدة زينب بنت الإمام علي، ومعاوية، وأويس القرني، وأبو عبيدة بن الجراح. وختم البدرى كتابه بملخص عما جاء فيه من فضائل الشام الكثيرة ومحاسنها الغزيرة، وبركاتها المشهورة وأخبار خيراتها الماثورة. ويمكننا أن نستنتج أن البدرى كان مولعاً بثقافة التنزه ويبدو أنه كان يجد فيها راحة للبال وشفاء للنفس وتجديداً للفكر. وفي ذلك يقول على لسان الأمير مجير الدين محمد بن تميم واصفاً الربوة:

نزه لحاظك في طاقاتها لترى

أصناف ما خلق الرحمن للبشر

ترى محاسن واد يحتوي نزها

لذاذة السمع والأبصار والفكر

(البدرى، ١٩٨٠).

استعرض البدرى تاريخ مدينة دمشق، ومؤسساتها العمرانية المختلفة، متنزهاتها وقصورها، ودور العلم كالمساجد والمدارس، والزوايا والخوانق، وهذا لا يدل فقط على الاهتمام بالحركة العمرانية في هذه الحقبة وإنما يدل أيضاً على وجود حركة فكرية ناشطة في دمشق خلال عصر البدرى، وقد تجلّى ذلك في ارتباط وجود دور العلم في المتنزهات، حيث كانت حلقات الدروس تقام آنذاك لتنشر العلم بين صفوف العامة وليس فقط للأعيان. وذلك لكون هذه المتنزهات لعامة الناس كابن البدرى الذي

كما في كتاب الزيارات للهروي، والذي يتناول فيه موضوع السياحة الدينية، والأماكن التي تستحق الزيارة، أو تستحب زيارتها بسبب أهميتها الدينية. وخطاب الفضائل، كما في كتابي فضائل دمشق و فضائل بيت المقدس مثلاً.

ولم يكتف البدرى بوصف محاسن دمشق التاريخية، فاعتبر أيضاً بعض الأقوال الواردة عن الشام من المحاسن، أما المحاسن الأخرى التي انتقل ابن البدرى للحديث عنها في كتابه هو الوصف الأدبي للعناصر المرئية، وذلك بالإشارة إلى البساتين والمنتزهات التي كان يزورها للتنزه والراحة، وما تحويها من عناصر جمالية كالأنهار والجداول والأشجار والأزهار، والتي وصف محاسنها من خلال أبيات شعرية انتقاها من عدة شعراء ربما لم يكونوا قد عاشوا في نفس الحقبة وكثيراً ما ربطوا بين وصفهم للمكان ومشاعرهم اتجاه المحبوب، وهذا يدل على أن ابن البدرى تذوق المكان ووصف جمالياته أكثر من الاهتمام بشكله الوظيفي. وفي ذلك يقول على لسان التقى ابن حجة الذي زار المرجة والتي كان يقصدها الناس للتمتع بمحاسنها ولكن الشاعر تذكر فيها أحبته وازداد وجدته فيها:

ذكرت أحبتي في المرج يوماً  
فقوت أدمعي نيران وهجي  
وصرت أكابد الأحزان وحدي  
وكل الناس في هرج ومرج

مضرته بالحلواء العسلية يصلح للامزاج الملتهبة وللشباب في الصيف ( البدرى، ١٩٨٠).

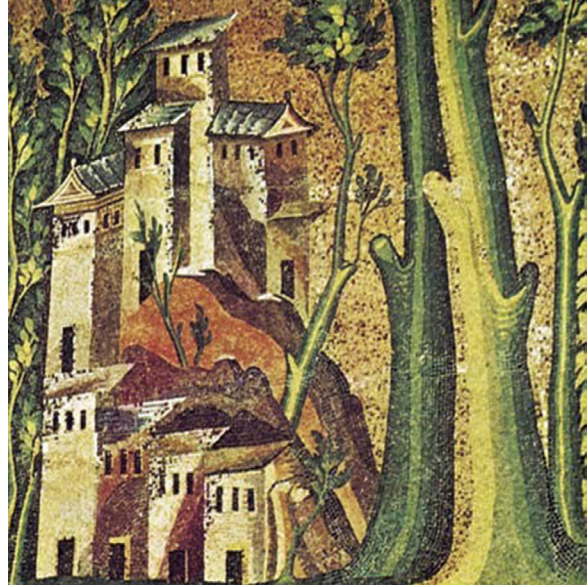
من خلال استعراض كتاب البدرى، نلاحظ أن لهذا الكتاب فضل كبير في وصف فضائل دمشق ومحاسنها وخاصة المنتزهات التي كان لها الأثر الكبير في حياة الدمشقيين، والتي تتيح لنا التعرف على أماكن تنزههم في تلك الحقبة التاريخية والتي لم يعد لها وجود في وقتنا الحاضر مع البقاء على أسماء البعض منها إلى الآن.

#### ٥ - خطاب المحاسن

بحسب التعريف المعجمي للمحاسن: المحاسن هي المواضع الحسنة، ومحاسنٌ: مفردها حُسنٌ ومُحسنة، فالمحاسن بكسر السين من حسن، ضد المقابح.

تحدث البدرى عن المنتزهات والحدائق ضمن خطاب "المحاسن" وهو خطاب يعنى بجماليات المكان. فالمنتزهات الدمشقية هي من محاسن مدينة دمشق التي تشمل معالم "محاسنية" أخرى، منها معمارية، ومنها عمرانية، ومنها تاريخية (احداث تاريخية ترتبط بأماكن معينة). ومفهوم "المحاسن" ينطلق بالدرجة الاولى من التجربة الإنسانية للمكان، أو ارتباط الانسان العقائدي أو الخيالي بالمكان. وخطاب المحاسن هو طرف من ثلاثة خطابات متقاطعة كانت متداولة في الأدبيات الاسلامية التي تتحدث عن المكان وطبيعته، هي خطاب الزيارات،

وضروب من الصناعات وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجهز منها به إلى كل الآفات والأمصار، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمّة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال، ولد دمشق في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة والحنطة فيها كثيرة جداً وأنواع الفواكه وأما الحلوات فيها ما لا يوجد غيرها ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة وأهلها في خصب عيش وصناعاتها نافقة وتجاراتها رابحة وهي من أعز البلاد الشامية وأكثرها حسناً (الإدريسي، د.ت.). أما إذا اطلعنا على بعض الكتب التي جاءت بعد البدري وتناولت خطاب المحاسن، مثل ابن كنان في كتاب "المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية" نلاحظ أن ابن كنان استعرض محاسن مدينة دمشق ضمن سياق تاريخي، استعرض فيه كل ما يخص المدينة في الفترة التي عاشها، فتناول تاريخها ومبانيها وضواحيها واعتبرها نموذجاً للممالك الشام التي ذكرها لاحقاً في كتابه. ومن الملاحظ أنه التفت إلى مؤلفي العهد المملوكي كـ (البدري) ليستفيد من خطاب المحاسن واعتمد الصورة التي طرحها، مع مواكبة الواقع العثماني الذي كان يعيشه. والمثال الآخر هو ابن الراعي في كتاب البرق المتألق في محاسن جلق الذي جمع من محاسن دمشق أجمل ما قيل فيها من أبيات شعرية.



الشكل (٩): لوحة فسيفسائية على واجهة الفناء الداخلي للجامع الأموي الكبير في دمشق، وهي عبارة عن رسم تخيلي لغوطة دمشق تظهر فيها البيوت المترابطة والأشجار المحيطة بها. (com.britannica.www)

## ٦ - خطاب المحاسن قبل وبعد البدري

تحدث الكثير من الرحالة الذين سبقوا البدري عن محاسن مدينة دمشق، وأجادوا في وصفها، وهم كثيرون نذكر منهم الحسن بن أحمد المهلبي البهنسي، والإدريسي، وابن جبير، وشهاب الدين النويري، وابن بطوطة. وإذا لاحظنا النصوص التي وردت في يومياتهم نرى أن ذكرهم لهذه المحاسن أجاء ضمن سياق عام يتحدثون فيه عن جميع المدن التي مروا بها، حيث نلاحظ أنهم لم يخصصوا كتاب معين لمناقشة خطاب المحاسن كما فعل البدري، ومثال ذلك وصف الإدريسي لمحاسن مدينة دمشق فيقول: مدينة دمشق جامعة لصنوف المحاسن،

## ٧ - مصطلحات الحدائق والمنتزهات

من خلال قراءة كتاب نزهة الأنام نستطيع أن نستنتج أن أماكن التنزه الواردة في نص الكتاب تمت الإشارة إليها بعدة مصطلحات هي: "روضة" و"حديقة" و"دوحة" و"جنة" و"بستان" فالحديقة كمصطلح، وبحسب التعريف المعجمي: هي كل مكان محدود من الأرض خصص لزراعة أنواع معينة ومحددة من النباتات بكل أنواعها وفق مخطط لتصميم فني مدروس، وتشغل في وحدة المساحة حيزاً من الفراغ يتناسب وأحجام هذه النباتات، والتي بدورها تتناسب مع بقية العناصر الأخرى الموجودة في الحديقة. وقد ذكر ابن منظور في لسان العرب أن "أصل الحديقة، من الفعل، حَدَقَ، وحَدَقَ به الشيء وأحدق، استدار، وكل شيء استدار بشيء وأحاط به، فقد أحدق به". الحديقة من الرياض، وكل أرض استدارت، وأحدق بها حاجز، أو أرض مرتفعة، والحديقة: البستان والحائط، وخصَّ بعضهم به الجنة من النخل والعنب، والحديقة: القطعة من الزرع، وكله في معنى الاستدارة... وكل بستان كان عليه حائط، فهو حديقة، وما لم يكن عليه حائط لم يُقَلَّ له حديقة.

(ابن منظور، ٢٠٠٣). وفي هذا يصف البدرى مكان ما في الربوة مطلقاً عليه اسم حديقة على لسان ابن لؤلؤ فيقول:

## وحديقة ينساب فيها جدول

طرفي برائق حسنه مدهوش  
يبدو خيال غصونها في مائه  
فكأنما هو معصم منقوش  
(البدرى، ١٩٨٠).

كما ورد في معجم لسان العرب لفظ الجنة، وأصلها ومعناها، جَنَّ الشيء يَجْنُهُ جَنَّاً: سَتَرَهُ، والجنة: السُّترة، والجنة تصغير جنة. وقد عرّف الراغب الأصفهاني الجنة بأنها: "كل بستان ذي شجر، يستر بأشجاره الأرض" (الأصفهاني، ٢٠٠٢)، والجنة مصدر جَنَّهُ جَنَّاً إذا ستره، فكل بستان فيه شجر ويستتر من بداخله يسمى جنّ. وفي هذا يقول البدرى على لسان خط الشرف القواس في وصف الربوة التي شبهها بالجنة:

سرى إلى الوادي وقف متنزها  
فالجنة غنت فوقه الأطيّار  
لو لم يكن هو جنة المأوى لنا  
ما كان تجري تحتها الأنهار  
(البدرى، ١٩٨٠).

وقد عرّف ابن منظور الروضة أيضاً، فيقول: "الروضة الأرض ذات الخضرة، والروضة: البستان الحسن، والروضة هي موضع يجتمع إليه الماء يكثر نبتة، ولا تكون الروضة إلا بهاء معها أو إلى جنبها،

يلبغا والذي اعتبره مكاناً للتنزه بما فيه من بركة ماء وفسقية وعريشة عنب وأحواض تحوي أشجار متنوعة من الفواكه فيقول:

بصحنه بركة ماء مربعة داخلها فسقية مستديرة بها نوفرة يصعد منها الماء قامة ومن فوقها مكعب عليه عريشة عنب ملون يصل الماء إلى قطوفها الدانية. وبجانبيها حوضان فيهما من أنواع الفواكه وأجناس الرياحين) (البدري، ١٩٨٠).

من خلال قراءة بعض النصوص في كتاب البدري نستطيع استنتاج بعض المصطلحات التي استخدمها لوصف محاسن المتنزهات والحدايق ويمكن أن نقسمها إلى ثلاث أقسام:

**مصطلحات نباتية:** من أشجار وأزهار وزروع وثمار .

**مصطلحات مائية:** من عيون وأنهار وفروع وجداول وبرك وبحرات ونوافير ونواعير وأحواض مائية .

**مصطلحات بنائية:** من القصور والمساجد والدور والحمامات والمدارس والحوانيت .

أما الجوانب التي ركز عليها عندما ذكر الحدايق والمتنزهات في مدينة دمشق عديدة كالأنهار والأشجار والأثمار والأزهار والخضرة والرياحين والنواعير والبرك والنوافير والجداول، بالإضافة إلى العناصر البنائية الموجودة في هذه المتنزهات كالقصور والحوانيت والمساجد والحمامات. وقد ذكر

والجمع من ذلك كله روضات ورياض وروض وريضان، وأروضت الأرض: ألبسها النبات، وأراضها الله أي جعلها رياضاً، وروضها السيل: جعلها روضةً“ (ابن منظور، ٣٠٠٢). ويقول البدري على لسان الأمير مجير الدين محمد ابن تميم في وصف الربوة:

وربوة قد سمت حتى تحال لها

سرا تحدثه للأنجم الزهر

ما بين روض وأنهار مسلسلة

تجري وتحمل أنواعا من الثمر

(البدري، ١٩٨٠).

أما مصطلحات العناصر الحداثيقية التي وردت على لسان ابن البدري في كتابه فهي كثيرة وتتوزع ما بين عناصر مائية وعناصر نباتية وعناصر بنائية. فعندما تحدث عن الشرفان وذكر ما به من المناظر والقصور، وما بها من الولدان والخور. وكيف تقرب أهلها من الله ببناء المدارس فيها حيث يجلس الطالب في شباكها ينظر إلى الماء والخضرة والوجه الحسن. وتحدث عن جامع تنكز في الشرق الأدنى وعن صحنه الذي يمر به نهر بانياس، وفيه ناعورتين تغترفان وتصبان في حوضين يحيط بهما سائر الأشجار وجميع الرياحين والأزهار، وبينهما بركة مربعة فيها كأس في غاية التدوير يجري الماء إليها من النواعير (البدري، ٠٨٩١). كما وصف البدري الفناء الداخلي لجامع

رعى الله وادي النيرين فإنني  
 قطعت به يوماً لذيذاً من العمر  
 درى أنني قــــد جيته متنزها  
 فمد لأقدامي ثياباً من الزهر  
 (البدرى، ١٩٨٠)

وأخيراً، ومن خلال الاطلاع على النماذج المطروحة لدى الباحثين في موضوع الحديقة الإسلامية، نلاحظ اعتمادهم على دراسة المفهوم من خلال النقاط الرئيسية الثلاثة المذكورة سابقاً، وهي: الشكل والهوية والتاريخ، واعتمدوا في طرحهم على بعض النماذج الحدائقية التي لاتزال موجودة إلى الآن، كحدائق الأندلس والحدائق المغولية مثلاً، فقاموا بتحليلها من حيث التصميم والشكل، وتحديد هويتها وتاريخها التي تعود إليه دون الرجوع إلى المصادر التاريخية التي تعود لمؤرخين عاصروها ووصفوها بشكل حسي دون الاهتمام بالشكل والتصميم. وهذا المفهوم الذي اتخذه الباحثون يجمد الحديقة ضمن قوالب جاهزة قياسية غير حدائقة، فالحديقة الإسلامية، كمفهوم، يعنى بالنماذج التاريخية بالدرجة الأولى. بينما مفهوم الحديقة- ضمن خطاب المحاسن للبدرى- فهو يدلُّ على المرونة والتغيير والتحول بما يتناسب مع التطور الحضاري ولا يلتزم بأشكال معينة أو صور ذات تنظيم فراغي معين. فهو يقوم بالدرجة الأولى على الارتباط الشعاري بالمكان وقدرة الأفراد على تذوق الجماليات والمعاني

البدرى بأن محاسن دمشق كثيرة بشكل عام وهي لا تعد ولا تحصى، وعندما تحدث عن المتنزهات حدد بعض صفاتها والتي اعتبرها من المحاسن، كوجود المناظر وما تحوي من أشجار ورياحين أزهار وأنهار ونواعير وقصور... واعتبر أن بعض المتنزهات لا تقصد فقط من أجل التنزه وإنما من أجل العبادة أيضاً، وقد جاء ذلك في وصف متنزه الشرفان وما يحتويه من محاسن متعددة بما فيها جامع تنكز وغيره من المدارس والمساجد. ومن صفات الحسن التي تغنى بها البدرى هو وجود الأنهار كعنصر أساسي في متنزهات دمشق، فكانت فروع نهر بردى تمر دوماً من خلالها متشعبة إلى جداول لتسقي أراضيه وتملاً البرك والبحرات، وغالباً ما كان يوجد نواعير هذه الفروع. ومن أبلغ الوصف ما جاء على لسان ابن عماد الأندلسي :

نهر يهيم بحسنه من لم يهيم  
 ويجيد فيه الشعر من لم يشعر  
 فكأنه و كأن خضرة شطه  
 سيف يسيل على بساط أخضر  
 (البدرى، ١٩٨٠)

وما أكثر حسناً من متنزه يجمع بين الأشجار والشمار والمياه والظل الظليل ، وفي متنزه النيرين يقول البدرى على لسان بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي:

مارسيه، جورج. الفن الإسلامي. ترجمة عفيف بهنسي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، (١٩٦٨).

ضمن إطار تجربتهم الشخصية المتغيرة. ومن خلال تحليل ما جاء في نص البدرى، نستطيع أن نتلمس هذا التذوق الذي ورد أحياناً على لسانه وعلى لسان غيره من الشعراء والأدباء والمؤرخين أحياناً أخرى.

#### English Refereces:

- Behrens-Abouseif, Doris.** Gardens In Islamic Egypt. In Der Islam 6, (1992).
- Bloom, Jonathan and Blair, Sheila.** Islamic Arts. Phaidon,(2002).
- Clark, Emma.** The Art of the Islamic Garden. The Crowood Press, Ramsbury, UK,(2004).
- Conan, Michel.** Middle East Garden Traditions. Harvard University, Washington, (2007).
- Hantelmann, Christa and Zoers, Pieter.** Gardens Of Delight: The Great Islamic Garden. Dumonte Monte, (2001).
- Hillenbrand, Robert.** Islamic Art And Architecture. Thames & Hudson, London, UK, (1999).
- Mitchell, George.** Architecture Of The Islamic World. Thames & Hudson, London, UK, (1978).
- Petruccioli, Att and Pirani, Khalil.** Understanding Islamic Architecture. Routledge Curzon, London, (2002).
- Rabbat, Nasser.** The Citadelo F Cairo: A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture. Leiden university, Leiden, Netherlands, (1995)
- Ruggles, Fairchild.** Gardens, Landscape & Vision In The Palaces Of Islamic Spain. University of Pennsylvania, Philadelphia, (2008).
- Ruggles, Fairchild.** Islamic Garden and Landscapes. University of Pennsylvania, Philadelphia, (2008).
- Spahic, Omar.** Islam, Architecture And Urban Planning. Arah Puplications, Malaysia, (2009).
- Thevanart, Arthur.** Palaces And Gardens Of Persia. Flammarion, Paris, (2002).
- Yeomans, Richard.** The Art and Architecture of Ilamic Cairo. Garnet Publishing, Berkshire, UK, (2006).

#### المراجع

#### المراجع العربية:

- ابن منظور، محمد. لسان العرب المحيط. بيروت: دار صادر، (٢٠٠٣).
- الإدرسي، أبو عبد الله محمد الشريق. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (٤٩٢-٥٥٩ هـ - ١٠٩٩ - ١١٦٤ م)، (د.ت.).
- الاصفهان، أبو القاسم. المفردات في غريب القرآن. دمشق: دار القلم، الدار، (٢٠٠٢).
- البدرى، أبي البقاء عبد الله. نزهة الأنام في محاسن الشام. بيروت: دار الرائد العربي ط١، (١٩٨٠).
- الزركلي، خير الدين. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، (٢٠٠٢).

## Al-Badrī and the Discourse of Beauties: A Study on Islamic Garden Concept

Hala Qasqas

Lecturer at the faculty of fine arts, Department of interior architecture.

halaqasqas@gmail.com

Received 6/8/2013 ; accepted for publication 4/11/2014

**Abstract:** Recently, many studies on Islamic gardens have appeared in non-Arabic languages, while new Arabic studies in this field remained limited. These studies have selected ideal models from particular locations and historic contexts, focusing primarily on the Andalusian, Persian, and Indian traditions. These traditions have formed the collective imagination's main reference for what has become known as "Islamic garden". As for the historical Arabic resources available that talk about Islamic gardens, they remained somewhat distant from, and foreign to, the new research trends. For they do not talk about gardens in the same way modern studies do. Arabic sources on garden design are also rare; and the authors who wrote about gardens and the so called "landscape" were non-specialists. They were literary scholars, historians, and religious scholars with various interests and preoccupations. This meant that the terms and concepts used in the traditional sources were different in meanings and implications from the modern ones. As there is still a shortage in Arabic terminologies that can express the modern concepts, the development of new theoretical tools to study Islamic gardens have been restricted. This study attempts to explore the concept of "Islamic garden" through a famous and important text written by a Damascene literary scholar named Abu al-Baqā' Al-Badrī (d. 1489). The book was titled *Nuzhat Al-Anām fī Mahāsīn Al-Shām* (*The People's Stroll in the Beauties of Damascus*). The study examines the ways in which al-Badrī talked about Damascene gardens, the intellectual and theoretical frameworks within his text was written, the terminologies he used to express his ideas about gardens and landscapes, and the discourse he constructed to present his thoughts, imageries, and imaginative constructions of Damascene gardens and places of recreations.

**Key words:** Islamic gardens concepts, Design of Islamic gardens, Heritage of Islamic gardens, Damascene gardens, Al-Badrī visions for gardens.

